المحاضرة الثانية لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

المجتمع السياسي في العراق أواخر العهد العثماني

في القرن التاسع عشر كانت المفاهيم الديمقراطية غائبة تماما عن سكان الولايات العثمانية الثلاث في بلاد ما بين الرافدين، التي شكلت فيما بعد دولة العراق الحديثة. كان النسيج الاجتماعي مكونا من أشكال تقليدية وهرمية من السلطة، والتي لم تسمح بالكثير من الاختلاف. كان السلطان العثماني عبدالحميد (1876-1909) مهووسا جدا بإخضاع الناس من خلال الشرطة السرية والمخبرين وبالتعاون مع القادة لضمان خضوع الناس له، ولوأد أي رغبة بالنقد ضد حكمه المطلق. وبالنسبة إلى السكان في البصرة أو بغداد أو الموصل، فإن الحركة السياسية الوحيدة التي كانت متاحة لهم هي في أعقاب صلاة الجمعة حيث كانوا يدعون بصورة موحدة بالبركة على الحاكم في اسطنبول.

أدى انعدام الوعي السياسي إلى شعور عميق بازدراء السياسة، مما جعل الشأن العام خارج اهتمام الأغلبية من الناس، حتى أولئك الذين يقطنون المدن. وعلاوة على ذلك فإن الموقف العام في تلك الحقبة كان يعطي احتراما ثابتا للحكام، والنأي بالنفس عن المجال السياسي. بيد أن شيئا ما حدث في بداية القرن العشرين عندما بدأت بعض الأفكار الدستورية والبرلمانية، والتي أثارتها الحركات الدستورية في طهران عام 1906 وتركيا عام 1908، تأخذ طريقها إلى مدن بغداد والبصرة والموصل والنجف وكربلاء، وأخذت تؤثر في وعي الطبقة المتعلمة الصغيرة في حجمها والكبيرة في تأثيرها.

إن ثورة الشبان عام 1908 قد حدت من السلطة المطلقة للسلطان ومهجت الطريق إلى الانتخابات للبرلمان العثماني. كما إن جمعية الاتحاد والترقي قد وعدت ونفذت الكثير من الإصلاحات والتي لم تؤد إلى خلق تيارات سياسية فحسب بل إلى خلق بيئة جديدة من وطفرة ثقافية. وكذلك تم إنشاء النوادي والجمعيات التي كانت ممنوعة فيما مضى وازداد عدد أعضائها بسرعة. وتم تشكيل الأحزاب السياسية، حتى تلك المعارضة لجمعية الاتحاد والترقي مثل الحزب الليبرالي المعتدل وحزب الائتلاف. أما بالنسبة للعراقيين، فأن الانتخابات الأولى لمجلس النواب التركي عام 1908 كانت تجربة جديدة ومربكة. فلقد كانت الـ 95% من الأميين من السكان تنظر إلى تلك الانتخابات بشيء من الدهشة والريبة. فلم يكن متصورا عند أولئك الناس الذين قضوا حياتهم تحت الحكم المطلق، أن الماسكين بزمام السلطة يمكن أن يطلبوا بصورة طوعية رأيهم ومشاركتهم.

المحاضرة الثانية لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

أَما الطبقة التي كانت تمتلك بعض الوعي السياسي فلقد استوعبت بسرعةٍ أَهمية الانتخابات. فبالإِضافة إِلى كونها وسيلة للتمثيل السياسي، كذلك كانت الانتخابات وسيلة أَيضا إِلى تعزيز نفوذهم السياسي وموقعهم في مجتمعاتهم من خلال توفير القرب من أولئك الذين يمسكون بِتلابيب السلطة. وبغض النظر عن الدوافع والشكوك، فإِن عملية الانتخاب والاقتراع مثلت للبعض نوعا آخر من الحكم يختلف عن السلطة المطلقة للسلطان عبدالحميد.

جرت الانتخابات بصورة عادلة وكان من بين النواب المنتخبين من اليهود وباقي الطوائف الإِسلامية، وهو ما لم يكن متخيلاً في الحقبة الحميدية. أَما الانتخابات اللاحقة التي جرت بعد أَربع سنوات فقد كانت المنافسة فيها أَكثر شدة. وشهد العراقيون للمرة الأُولى التنافس بين الأَحزاب والمرشحين. وفي هذه الانتخابات فاز عدد من المرشحين من المدن الجنوبية مثل البصرة والعمارة على الرغم من معارضتهم الشديدة لسياسات جمعية الاتحاد والترقي.

كانت رياح التغيير الاجتماعي، تهب على المدن الدينية "كربلاء – سامراء – النجف"، فلقد خلقت الثورة الدستورية في بلاد فارس ام 1906 جدلاً واسعا بين رجال الدين وأَتباعهم في المدن المقدسة النجف وكربلاء، بين أولئك الذين كانوا يروجون لاتباع مسار الثورة الدستورية وبين أولئك الذين كانوا يؤيدون البقاء على الحكم الملكي المطلق. لم يكن مستغربا أَنه قبل 1906 كان رجال الدين المؤيدين للحكم المطلق هم من يمتلك السيطرة على العوام، حيث كان هذا الاتجاه مستقويا بالبنية المطلقة لحكم السلطان عبدالحميد إِلا أَن المناخ السياسي بعد عام 1908 قد تغير لصالح الدستوريين. الذي اتسم بالانفتاح السياسي ولكن لم يدم طويلاً بسبب تحول الاتحاد والترقي إِلى انتهاج النزعة التسلطية كفرض التتريك على المناطق العربية، وبالنتيجة تم الحد من الفعاليات السياسية في الولايات الثلاث.

الواضح أَن هناك ارتباط وثيق بين قيام المجتمع السياسي العراقي ونشأَة الفكر القومي العربي المتأَخر في البلاد، خصوصا وأَن التوجه الديني كان سائدا بين العراقيين المسلمين طيلة مدة الحكم العثماني، إِذ كانوا ينظرون للأَتراك إِخوانا لهم في الدين ضمن إِطار الدولة العثمانية، فلم يكن للعراق في أَواخر القرن التاسع عشر تربة خصبة لنمو الحركة القومية، خلافاً لسوريا ومصر، لم تكن للعراق اتصالات وثيقة بالأَفكار الأُوروبية أَو بالبعثات التبشيرية، إِضافة لذلك كان عدد الذين يرتادون المدارس الموجودة غير كبير وباستثناء أَبناء العوائل الغنية فلم يكن ثمة طلبة ويرسلون للخارج لمواصلة التعليم،

المحاضرة الثانية لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

ولكن من جهة أُخرى، كانت بذور التغيير بدأت بالنمو داخل المجتمع العراقي، فلقد كانت الظروف الاجتماعية – الاقتصادية تتعرض، بعد سنوات من الركود، لتحولات تدريجية ولكنها محسوسة وذات نتائج سياسية مهمة، كذلك لم يكن المثقفون العراقيون بعيدين عن أَفكار المصلحين الإسلاميين والقوميين العرب الصادرة عن سوريا ومصر، **ولكن أَسهم حدثان مهمان في تحديد شكل الحياة السياسية والقومية في العراق في بدايات القرن العشرين هما:**

1- تأَثر المثقفون العراقيون بأَفكار القوميين العرب المسيحيين الشاميين، الذين يعتبرون الدولة العثمانية غريبة عنهم ومتسلطة عليهم، لذا كانوا ينادون بالعروبة كقاسم مشترك مع العرب المسلمين لتوحيد الجبهة ضد الدولة العثمانية، كذلك ارتباط بعض المثقفين بجمعيات وأَحزاب أَثرت في النزعة القومية العراقية الناشئة كحزب (اللامركزية الإدارية العثمانية وجماعة العهد).

2- وصول جماعة الاتحاد والترقي إلى السلطة في الإمبراطورية العثمانية عام 1908م، والتي قامت بعزل السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909م، فقد عرفت الجماعة بأَنها ذات نزعة طورانية، سنَّت قوانين عنصرية منها فرض اللغة التركية في المدارس الحكومية ونظام القضاء والإِدارة المحلية، مما ولَّد حالة من الحنق تجاه الدولة العثمانية لدى العراقيين.

كانت المرحلة الأُولى لتأليف أَحزاب سياسية في العراق (1908-1912) تتميز بكونها امتدادات فعلية لمنظمات سياسية قائمة فعليا في تركيا نفسها، فلقد افتتحت جمعية الاتحاد والترقي أَول فرع لها في بغداد عام 1908م. إِلا أَن عضويتها كانت تقتصر على الموظفين، وضباط الجيش وقلة من العراقيين، وكان فرع الجمعية في البصرة أَكثر شعبية بفضل تأييد طالب النقيب، الشخصية السياسية والاجتماعية المعروفة آنذاك وأَول وزير داخلية للعراق في الحكومة المؤقتة عام 1921م. ولقد تكونت المعارضة المحافظة للاتحاديين في عام 1911م بقيادة الحزب (الحر المعتدل) الذي كان يقوده عبدالرحمن النقيب، أَول رئيس وزراء للعراق عند تشكيل الحكومة المؤقتة في عام 1921.

أَما المعارضة القومية العربية للاتحاديين، فكانت في مراحلها الأُولى تتجمع حول حزب (الائتلاف والحرية) التركي الأَصل الذي افتتح فرعه في بغداد عام 1909م وفي البصرة عام 1911م. إِلا أَن فترة التطابق هذه بين المنظمات السياسية العراقية والتركية لم تدم طويلاً، ذلك أَن خيبة الأَمل المتعاظمة مهدت الطريق أَمام ظهور تجمعات عراقية مرتبطة بمنظمات عربية وليست تركية.

المحاضرة الثانية لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

ولفهم أوسع لتطور الحركة القومية العربية في العراق لا بد من تناول كيفية تشكلها في ولاياته الثلاث (الموصل – بغداد – البصرة):

- (الموصل)

لم يكن الوعي القومي العربي في عهد الأتراك، عاليا في ولاية الموصل كما هو الحال في بغداد والبصرة خاصة. ولكن خلال الاحتلال البريطاني أصبحت الموصل بؤرة مهمة للسخط والفعاليات القومية العربية بحيث تجاوزت بذلك البصرة. وربما كانت العوامل التالية تلقي ضوءا على أسباب ذلك:

1- القرب الجغرافي من تركيا كان عاملاً في إعاقة نمو الحركة القومية خلال العهد العثماني.

2- كان العرب يشكلون النسبة الأعظم من سكان ولاية الموصل ولكن لم يكن التركيب القومي للولاية عربيا خالصا كما كان الأمر بالنسبة للبصرة أو بغداد.

3- إن السياسة المركزية التركية التي كانت تستدعي تحطيم الاتحادات العشائرية، وإلغاء حكم العوائل قد نفذت بين (1869م-1872م). إلا أن ذلك تم في الموصل قبل ذلك التاريخ، أي في عام 1833م حيث أصبحت الموصل خاضعة تماما للسيطرة التركية وكان التواجد المصري في سوريا هو الذي دفع الأتراك إلى إحكام قبضتهم على الموصل.

وهكذا فإن عدم وجود عوائل ذات سطوة سياسية حرم الحركة القومية في الموصل من (القيادة الأبوية) التي كانت ضرورية في تلك الظروف، ومن جهة أخرى فإن هذا العامل نفسه ساهم إلى حد كبير في خلق الطابع الجذري (اجتماعيا وسياسيا) للحركة في الموصل. ففي حين كانت قيادة الحركة القومية في البصرة خاضعة لعناصر ثرية، وفي بغداد لأفراد من الطبقة الوسطى العليا، فإن قيادة الحركة القومية في الموصل كانت تتألف من أفراد من الطبقة الوسطى السفلى من منشأ متواضع بل أحيانا من الفقراء.

4- إن تعطيل تسجيل الأراضي الذي حدث في (1880م-1882م) لم يشمل الموصل والأجزاء الشمالية من العراق، وبمرور الزمن، أصبحت أراضي "الطابو" في الموصل تمثل النسبة الأعلى في جميع أنحاء العراق، وكان من الانعكاسات الاقتصادية والسياسية لهذا الوضع أن أصبح حائزو الأراضي معتمدين بشكل كلي على الحكومة (لحماية أملاكهم) من غضب الفلاحين، وبالنتيجة فإنهم لم يكونوا في وضع يسمح لهم بممارسة أية معارضة للسلطة الحاكمة.

المحاضرة الثانية لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

لقد قام سليمان فيضي بتأسيس (**الجمعية القومية السرية**) عام 1913م، ولكن لم تقم بنشاط يذكر واختفت بعد فترة قصيرة، وفي عام 1914م تشكلت جمعية (**العلم**) السرية من بعض المدنيين العرب في الموصل ولقد بقيت هذه الجمعية حتى عام 1919م، عملت على تحريض السكان والجنود العرب ضد الأَتراك.

- **(بغداد)**

إن المعارضة العربية للاتحاد والترقي في بغداد، اتخذت في أَيامها الأُولى موقف المطالبة بالمساواة بين العرب والأَتراك أَكثر منها باللامركزية أَو الإنفصال، وقد شكل قوميو بغداد فرعا لحزب (الحرية والائتلاف) التركي، وبعد ذلك ظهرت في بغداد أَواخر 1912م، جمعية جديدة باسم (النادي الوطني) كانت ذات طابع قومي أَكثر جرأة وجذرية، وسرعان ما ارتبطت هذه الجمعية بجمعية (الإصلاح) التي شكلها طالب النقيب في البصرة في أَوائل 1913م، وفي الواقع تبنت جمعيتا البصرة وبغداد وبرنامج حزب اللامركزية العثماني وأَصبحا فرعين بارزين له. ومن الجدير بالذكر أَن جمعية النادي الوطني البغدادية ذات الاتجاه القومي العربي كانت تضم نخبة من مثقفي العراق آنذاك ومن مختلف الطوائف، فمثلاً كان من أَعضائها القياديين مزاحم الباجه جي بالإضافة إلى بعض ضباط الجيش العثماني من العرب القاطنين في بغداد. وكان يرعى هذه الجمعية يوسف السويدي الذي انتخب في أَيلول عام 1913م عضوا في المجلس، وفي عام 1915م اعتقله السلطات العثمانية ولم ينج من المشنقة إلا بعد نفيه عن العراق.

- **(البصرة)**

كانت سيرة السيد طالب النقيب، نقيب البصرة، في السياسة العراقية والحركة القومية خلال سنوات (1908م-1914م) ذات طابع متميز، والحقيقة التي تلفت النظر هي أَن البصرة كانت إلى حد كبير مركز الحركة القومية الصاعدة. فالرجل والمدينة قد ارتبطا عضويا نتيجة لظروف تاريخية معينة آنذاك، لذا أَصبحت البصرة مركزاً للحركة القومية في العراق، لمجموعة من الأَسباب التالية:

1- تقع البصرة جغرافيا في أَقصى طرق الإمبراطورية العثمانية بعيدة عن سطوة المركز، ومن ناحية أُخرى كانت البصرة مجاورة للمحمرة والكويت اللتان شملتهما الحماية الإنجليزية.

المحاضرة الثانية لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

2- كان التركيب الاجتماعي والاقتصادي للبصرة عاملاً آخر في تحديد دورها أَو اتجاهها السياسي المتميز، فقد كانت المدينة في حقيقة الأَمر بستانا هائلاً للتمور، وكانت تجارة البصرة تتميز بثلاث سمات أَساسية: النمو السنوي في حجمها، واعتمادها المتزايد على الأَسواق البريطانية، وازدياد حجم تصدير التمور.

3- إن العدد الكبير لزارعي التمور، وصعوبة خزنها وطبيعتها السريعة للتلف، كانت كلها عوامل أَضعفت مركز المنتجين الصغار والفلاحين تجاه التجار والأَثرياء والملاكين، وهكذا انعكست على السيطرة الاقتصادية لتجار وملاكي البصرة على المراكز السياسية والاجتماعية الحيوية.

4- الدور القيادي للسيد طالب النقيب، والذي عمل على تثبيت مركزه الاجتماعي في البصرة، بعد أَن أَسس حزب (الحرية والائتلاف) والذي طالب في برنامجه السياسي بجعل الولاة عراقيين وأَن تكون العربية اللغة الرسمية للدولة، وبعد نضال سياسي طويل تمكن من إِجبار الأَتراك على الاعتراف بنفوذه لاحتواء مطالبه.